عـــلاقات فرنسا بشمال افريقية
فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر

للدكتور محمد مصطفى صفوت

لم تهتم فرنسا اهتماما حقيقيا بأمر شمال افريقية (١) الا فى اوائل الربع الثانى للقرن التاسع عشر ، الا بعد أن رسخت اقدامها رسوخا تاما فى الجزائر. حقيقة لقد كانت لفرنسا علاقات بشمال افريقية وخاصة تونس والجزائر منذ القرن السابع عشر ، ولكنها كانت علاقات ذات صبغة تجارية اقتصادية فى الغالب . وكانت فرنسا أول دولة اوربية قررت ان يكون لها ممثلون سياسيون او قناصل عامون (جنرالات) فى بعض المناطق من الشاطىء الافريقى الشمالى. وكان لها بعض من نفوذ فى هذه الجهات بحكم المعاهدات التى عقدتها مع الدولة العثمانية التى كانت تسيطر على شرقى البحر المتوسط جميعه وعلى شمال افريقية الى حدود مراكش الشرقية (٢) . وطوال القرق السابع عشر كان للقناصل الفرنسيين حق (هو اسمى فى حقيقة الامر) فى رعاية او حماية الرعايا الاوربيين الكاثوليك المقيمين فى هذه الاقطار .

ولكن فرنسا لم تقرر نهائيا خطة سياسية محدودة بازاء تونس التى تقع فى منتصف شمال افريقية تقريبا وبازاء مراكش الا قرب أواخر الربع الثانى للقرن التاسع عشر ، ولقد اتبعت فرنسا هذه الخطة ، أو السياسة التقليدية كما أسمتها ، بكل دقة وبقوة لاتعرف التراجع او التسليم أو الوهن الى ان فرضت حمايتها نهائيا على تونس فى أوائل صيف سنة ١٨٨١ وبسطت سيطرتها على مراكش فى السنوات الاربع الاولى للقرن العشرين .

لقد كان فتح مدينة الجزائر فى سنة ١٨٣٠ خطوة جريئة وقوية معا قام بها ملوك البربون الفرنسيون حين شعروا بازدياد ضعف مركزهم الداخلى فى فرنسا ، وحين احسوا قيام معارضة قوية ضدهم من جانب الجمهوريين

(١) المقصود بشمال افريقية هنا الجزائر وتونس ومراكش وطرابلس

(٢) لم تخضع مراكش فى يوم من الايام للعثمانيين بعكس الجزائر وتونس وطرابلس .

والملكيين الاحرار الدستوريين . فأرادوا شغل الرأى العام الفرنسى عن مناقشة سياستهم الداخلية الرجعية وانتقادها . وأرادوا فى نفس الوقت تقوية مركز الملكية البربونية الداخلى وتثبيته بانتصار خارجى مدو لايكلف فى نفس الوقت فرنسا كثيرا . فاستغلوا اهانة داى الجزائر لقنصلهم فى هذه المدينة، وطالبوا بتعويضات وحقوق لم يعترف بها هذا الحاكم . ولايستطيع الاعتراف بها ، وحينئذ ارسلوا حملة بحرية ضربت مدينة الجزائر واحتلتها . وبذلك انتهى عهد الاستقلال الفعلى لهذه البلاد ، وانتهت سيادة السلطان العثمانى الاسمية ، وزال نفوذ الاتراك نهائيا ذلك النفوذ الذى استمر اكثر من قرنين من الزمان .

وضع البربون اذن ، وهم لايشعرون ، اساس الامبراطورية الفرنسية الحديثة فى افريقية . ولكن اساس دولتهم فى فرنسا لم يستمر فلقد انهار فى نفس السنة التى فتحت فيها مدينة الجزائر . ولكن ملكية آل اورليان احتفظت بمدينة الجزائر فلم تجل القوات الفرنسية عنها بل وقاومت ناجحة كل راى او فكرة ترمى الى الانسحاب من شمال افريقية . ولم تقتصر على ذلك ، بل وارسلت القوات الفرنسية من مدينة الجزائر قاهرة وفاتحة الى المناطق المجاورة الى أن استطاعت فى آخر الامر اتمام فتح بلاد الجزائر جميعها فى نهاية النصف الاول للقرن التاسع عشر .

فى الجزائر قامت فرنسا باكبر تجربة استعمارية عرفتها فى تاريخها الحديث . واعتبرت بلاد الجزائر ، من النصف الثانى للقرن التاسع عشر الى الوقت الحاضر ، امتدادا لاراضى فرنسا وجزء لايتجزأ منها ، بل لقد اعتبرتها بعض الحكومات الفرنسية مونلا أخيرا تلجأ اليه اذا اصابت فرنسا فى القارة الاوربية كارثة اودت بقوتها البرية .

لقد اصبحت فرنسا بعد اتمام فتح بلاد الجزائر ، وقد تم لها ذلك بعد بذل جهد عنيف وتضحيات كبيرة فى الاموال والانفس ، اصبحت فرنسا مقيمة فى بلاد اسلامية تتاخم حدودها دولتين اسلاميتين ، وكان من الطبيعى ان يكون اثرها كبيرا فى ذلك العالم الاسلامى القريب منها والمجاور لها ، وان تتأثر به ايضا . فلم تعد حينئذ مصالح الدولة الفرنسية اوربية ومسيحية فحسب، بل افريقية واسلامية كذلك . واصبح لزاما على كل حكومة تتولى زمام الحكم فى فرنسا ان تعنى عناية خاصة بأمور ذلك العالم الجديد ، وما يجد فيه من حوادث ، وما يتعاقب عليه من انقلابات وتغيرات . لان هذه الحوادث والانقلابات لابد وأن تحدث صدى كبيرا فى الممتلكات الفرنسية فى شمال افريقية .

حقيقة كان لفتح الفرنسيين دوى هائل فى شمال افريقية . فلقد تزلزلت كل النظم الموجودة هناك وتضعضعت ؛ ولم تعد دولتا تونس ومراكش المجاورتان

للجزائر فى مأمن من الخطر الفرنسى الذى كان يزداد نمـوا وعنفـا كل يوم . وانتهى عهد الاطمئنان بالنسبة لهاتين الدولتين اللتين كانتا قد اخذتا فى طريق الضعف السيـاسى والاقتصادى ، وسيأتى يوم يشاء القـدر فيه وتحكم فيه الظروف الجغرافية وتطور الاحـداث التاريخيـة أن تقع فيه الدولتان تحت سيطرة فرنسا والحكم الفرنسى .

وبالنسبة لدولة تونس كان الخطر أعظم وأقرب لصغر مساحتها وجنوح أهلها للسلم . وهى بعد ذلك لها من الثروة الغنى والموارد الطبيعية والمركز الجغرافى فى البحر الابيض المتوسط ما يجعلها أكثر جاذبية لجيرانها الجدد الفرنسيين . كذلك لاتوجد حدود طبيعة ولاسياسة ولاعنصرية حقيقية ولادينية تفصل بينها وبين البلاد الجزائرية . واذا كانت الحكومات الفرنسيـة المتعاقبة قد قررت الاحتفاظ بالجزائر فكان لزاما عليها كما رات ان تراقب بدقة مايحدث فى القطرين التونسى والمراكشى . فاحتفاظ فرنسا بالجزائر دعاها الى متابعـة الاهتمـام بامور تونس . لانه فى شمال افريقية ـ كما اعتقد الفرنسيون فى القرن التاسع عشر وكمـا لايزالون يعتقدون تستطيع فرنسا التعبير عن نشاطها المتـدفق وحيويتها الفائقة ، تستطيع تدريب قواتها العسكرية واعداد أعظم جنودها . لقـد اصبحت الجزائر مركزا للتوسـع الفرنسى فى شمـال افريقيـة واعظم مدرسة لتدريب الجنـد ـ كانت مدرسة عملية للحرب والصبر تخرج فيهـا معظم قادة فرنسـا من رجال الحرب ، وتيير Thiers ـ وقد تولى الاشراف على الحكومة فى فرنسا مرارا ابان القرن التاسع عشر ؛ يشـير دائما الى الجزائر كمدرسة عملية يتدرب فيها الجيش الفرنسى على تحمل المكاره والمشاق ومقابلة الخطر المتجدد المستحكم ، واليقظة وحضور الذهن ؛ فاحسن الجنود الفرنسيون هم الذين مارسوا امور الحرب امام الحصان الابيض وامام الجزائريين (١)

لقد ارتسمت فرنسا لنفسها سياسة استعمارية فى الجزائر نمت وتطورت خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين وتنطوى آخر مراحل هذه السياسة على ضم هذه البلاد نهائيا الى فرنسا بحيث تصبح الجزائر فى آخر الامر أرضا فرنسية سكانها مواطنون فرنسيون من حيث الحقوق والواجبات السياسية . لقد رمت السياسة الاستعمارية لفرنسا فى أول الامر الى استغلال موارد الجزائر الطبيعية والاقتصادية ، وعملت على اقامة حكم فرنسى قوى للوصول الى ذلك الغرض ، واستخدمت شتى الوسائل لتثبيت دعائم ذلك الحكم من ابقاء جيش قوى على قدم الاستعداد فى كل لحظة وانشاء فرق اجنبية تتكون من المغامرين

---

(١) De Remusat : Thiers ص ٦٨ و ٦٩

من كل دولة وملة للمساعدة فى قمع الثورات ، وتشجيع الفرنسيين على الهجرة وتعضيد كل من كانت له ميول فرنسية فى هذه البلاد ، واستغلال رؤوس الاموال الفرنسية فى تنمية موارد الثروة .

ومرت السياسة الفرنسية فى الجزائر فى مراحل ابان القرن التاسع عشر . فكانت فى اول الامر سياسة قوة وعنف وقمع وفتح واستيلاء وارغام الاهلين على قبول الخضوع للحكم الفرنسى . ولكنها بمرور الزمن اخذت تتحول بالتدريج الى رغبة فى استصلاح الجزائريين عن طريق منحهم بعض الحقوق ليقبلوا الحكم الفرنسى راضين . ولكن يظهر ان كلتى السياستين لم تفوزا بنجاح كبير وخاصة بعد نمو حركة الجامعة الاسلامية فى الربع الاخير للقرن التاسع عشر ونمو الشعور القومى . فالعوامل القومية واختلاف الدين والعنصر (الجنس) لها أثر كبير فى بقاء مشكلة الجزائر الى الوقت الحاضر .

* * *

ولو ترك الامر للسلطات الحربية الفرنسية فى الجزائر تفعل ما تريد لاستولت بقوة السلاح على تونس بالذات اولا معارضة حكومة لوى فيليب ونابليون الثالث وفى أوائل الربع الثانى للقرن التاسع عشر وضع الوزير الانجليزى بامستون Palmerston سياسة انجلترا التقليدية ازاء تونس(١) وكان لذلك اثره بلا ريب فى السياسة الفرنسية ، فبعد ان كانت سياسة العمل على التوسع السريع الجارف فى شمال افريقية ، اصبحت سياسة المحافظة على الحالة الراهنة فى كل من تونس ومراكش . وبذا عملت كل من انجلترا وفرنسا على الابقاء على الموقف السياسى الموجود فى ذلك الوقت ، وان تباينت دوافعها واختلفا فى ذلك فهما لذلك الموقف . فلم تكن معالم ذلك الموقف محدودة ولا متفقا عليها . وكانت السياسة الفرنسية ترحب بذلك الغموض ، وتجد فيه فائدة كبيرة لها تتفق واغراضها الامبراطورية الاستعمارية .

كانت السياسة الفرنسية ابان القرن التاسع عشر الى سنة ١٨٨١ بالنسبة لتونس قائمة على اساسين : اولا كرهها لان تكون لها حدود سياسية مشتركة مع ممتلكات الباب العالى ، وثانيا المحافظة على ممتلكات فرنسا الجزائرية فلقد كانت اهمية الجزائر عند الفرنسيين مشابهة لاهمية الهند عند الانجليز .

ولو ان الباب العالى ترك تونس وامورها ولم يتدخل فى شئونها ؟ ! الا ان مركز الدولة العثمانية القوى فى طرابلس حتم عليها التدخل فى امور تونس

---

(١) وكانت هذه السياسة تقتضى بالاعتراف بتونس كجزء من ممتلكات الدولة العثمانية مع الاحتفاظ باستقلالها فى تصريف امورها الداخلية .

ومحاولة استرجاع سلطانها فيها . ففى تونس يستطيع الباب العالى الاتصال بالقبائل الجزائرية ، فيثير مشاكل خطيرة لفرنسا لاعداد لها . ولذا فبالرغم من أن فرنسا قررت مؤقتا الا تتوسع على حساب أراضى تونس الا انها صممت بعزم وقوة على منع الباب العالى من استرجاع نفوذه فى تونس ، او التدخل فى شئونها تدخلا ينقص من استقلالها الذى تتمتع به ، فلا عجب اذن اذا بينت الحكومات الفرنسية المتعاقبة فى المدة ما بين سنتى ١٨٣٥ : ١٨٨١ للحكومات العثمانية ، وذلك بوضوح لامزيد عليه ، أنها لن تعترف بحقوق الباب العالى فى تونس ، وليست له حقوق ، ولن تقبل أى تدخل من جانبه . وأنها ستلتجىء الى القوة اذا قام بأية محاولة لبسط سلطانه على هذه البلاد (١)

والى جانب ذلك احاطت فرنسا بايات تونس علما بأنه لا سبيل الى التنازل عن شىء من حقوقهم أو مظاهر سلطتهم للباب العالى ، وان مصالحهم تختلف تماما مع مصالح السلطان ، وانه لاصلة تربطهم بتركيا سوى صلة الدين ، وان هذه الصلة لاتعنى شيئا من الناحية السياسية . وضمنت للبايات الاعتراف باستقلالهم (٢) . وغالت فرنسا فى محاولاتها العمل على ضم حكام تونس ووزرائها الى الجانب الفرنسى ، فأهدتهم النياشين الرفيعة الكثيرة ، وقدمت لهم الهدايا الثمينة . واستقبلت الباى أحمد باشا حين زار باريس استقبال الملوك . ولم تأبه مطلقا لاحتجاجات السفير العثمانى فى باريس ، وقبلت النياشين التى منحها الباى لضباطها ومبعوثيها السياسيين او القنصليين . واما من حيث محاولات انجلترا لتوثيق الصلات بين البايات والباب العالى ، فلقد وضعت فرنسا فى سبيلها كل العراقيل الممكنة . وافهمت البايات جيدا ان ما تهدف اليه حكومة انجلترا هو أن تجعل منهم ولاة اذلة خاضعين للسلطان (٣)

اخذت فرنسا اذن على عاتقها حماية استقلال تونس ضد مطامع السلطان العثمانى ، وجعلت هذه السياسة سياسة تقليدية لها . ووضع اسس هذه السياسة الوزيران الفرنسيان تيير وجيزو . ولم تأل الحكومات الفرنسية جهدا فى توضيح وجهة نظرها هذه للباب العالى فى الفترات المختلفة ، ولم تتورع بالفعل عن ارسال اساطيلها الى المياه التونسية حين وجدت ان الباب العالى يحاول أن يتدخل فى أمور هذه البلاد . بل وهددت مصير الدولة العثمانية نفسها ان لم تحترم وجهة النظر الفرنسية ؛ ففى سنة ١٨٦٤ مثلا أعلن دى

---

(١) انظر مذكرة القنصل الانجليزى ود Wood لوزارة الخارجية الانجليزية F. O. 102/58 Aug. 26, 1859

(٢) نفس المرجع

موستير De Moustier السفير الفرنسي في القسطنطينية للحكومة العثمانية ان فرنسا لن ترحب بجوار العثمانيين في تونس ، وطلب الا يعطى الباب العالى لفرنسا فرصة العمل على انهيار الدولة العثمانية (١) .

وكذلك وضحت فرنسا لانجلترا سياستها هذه بأنها لن تصبر ابدا على تدخل الباب العالى فى امور تونس ، وانه للمحافظة على ممتلكاتها فى الجزائر لا مناص لها من المحافظة على الموقف السياسى الراهن فى تونس . فيقول درون دى لوى Drouyn de Lhuys وزير الخارجية الفرنسية لكولى Cowley سفير انجلترا فى باريس فى اوائل النصف الثانى للقرن التاسع عشر ان سياسة فرنسا بازاء هذه المسألة واحدة لن تحيد عنها ، ففرنسا لها مصالح مهمة وحيوية فى الجزائر ، وان من مصلحة فرنسا ومن مصلحة الباب العالى نفسه ان تتعامل فرنسا مع تونس وحدها لا مع السلطان ، فجيرة فرنسا ليست مريحة للسلطان وستخلق له بلاريب مشاكل لاحصر لها هى فى غنى عنها (٢) ويقصد الوزير الفرنسى بذلك اثارة المسألة الشرقية وتدمير الدولة العثمانية .

كذلك عملت فرنسا على أن يكون لها وحدها التفوق السياسى والاقتصادى فى تونس ، وعلى الا تكون الفرص متساوية امام جميع الدول الاوربية التى لها مصالح فى هذه البلاد ، فيجب ان يكون لمصالح الفرنسيين التقدم على مصالح الدول الاخرى . وهنا قد يوضع هذا السؤال . الى اى حد اثرت المصالح الاقتصادية فى سياسة فرنسا نحو هذه البلاد ؟ فى الواقع ان اهم الدوافع كانت دوافع سياسية واستراتيجية ، وهذه الدوافع هى فى الغالب التى دعت الدول الاخرى مثل انجلترا بل وايطاليا الى ارسال رؤوس اموالها الى هذه البلاد واستخدامها فى مشاريع الغنم الاقتصادى العاجل منها ضعيف لايشفى غليل رجال المال ولا يقنع الاقتصاديين .

ولقد عمل على تفوق النفوذ الفرنسى فى نفس القوات الضخمة التى حشدتها فرنسا على الحدود بين البلدين ، ثم المظاهرات البحرية التى كانت تقوم بها من حين لآخر فى المياه التونسية ، ووسائل التهديد والوعيد التى كانت تستخدمها ، ثم النياشين والهدايا التى كانت تغدقها فى المناسبات المختلفة على الباى وعلى وزرائه . كان معظم الموظفين الاجانب فى كثير من الاوقات فرنسيين ، وقام بعدد كبير من المشاريع فرنسيون . فلا عجب اذن اذا وجد القنصل الانجليزى فى سنة ١٨٥٦ زميله القنصل الفرنسى يتمتع بنفوذ هائل لا نظير له .

(١) نفس المرجع

(٢) وثائق وزارة الخارجية الانجليزية Cowleyts Russell رقم ١٨٠١٠٥٤ ديسمبر ١٨٦٤

ولذا كرس نشاطه السياسي، وكان كبيرا لمحاربة ذلك النفوذ وهدمه اذا استطاع الى ذلك سبيلا .

ولذا قام النزاع حامي الوطيس بين القنصلين الانجليزى والفرنسى على النفوذ السياسى والتفوق الاقتصادى . فكان التنازع على أشده بين سير توماس ريد Reade ودى لسبس ، وكذلك كان التنافس شديدا بين خلفائهما على نيل الامتيازات واحتكار المشاريع ، واتهم كل من القنصلين الآخر بالعمل على عرقلته والاساءة الى سمعته ومحاولة القضاء على مصالح مواطنيه .

وبالرغم من كفاح القنصل الانجليزى Richard Wood ظل النفوذ الفرنسي متفوقا الى سنة ١٨٧٠ ، ووجد ود أن نصائحه التى كان كريما فى اسدائها للباى ليست بذات كبير غناء أمام نفوذ زميله الفرنسى الذى كان يؤيده ستون الف جندى مرابطين على الحدود الجزائرية وبحرية كثيرة التردد على موانى تونس (٢) .

كان الرأى مختلفا فى الدوائر السياسية الفرنسية بالنسبة لاحتلال تونس ففريق من رجال الحكومة لا يؤيد سياسة القمع والقهر والاستيلاء على هذه البلاد بالقوة ، بل يرى اتباع سياسة التريث والانتظار ، وفريق آخر يرى استعمال الوسائل السلمية لضم تونس الى الجزائر ، وذلك باحتكار المشاريع واقناع الباى بصداقة فرنسا . وكانت آراء الفريق الثانى هى الراجحة ، ويظهر أن آراء الفريقين كانت مجمعة على مد حدود الجزائر الى نهر مجرده ، بحيث تكون بنزرت فى المنطقة الفرنسية ، وذلك اذا ارغمت الظروف فرنسا على اتخاذ موقف حاسم . وكانت السلطات الفرنسية الحربية فى الجزائر تؤيد بحماس هذه الفكرة وتسعى الى تنفيذها فى أقرب وقت مستطاع . وهناك فريق ثالث يرى أن فرنسا لديها من المشاغل الكثيرة والمشاكل المعقدة ما يجب ان يصرفها عن التفكير فى خلق مشاكل جديدة بضم تونس ، لاسيما وان ذلك الفريق يرى ان فرنسا قد لاقت الوانا من المتاعب فى الجزائر . وان تجربة الاستعمار فى الجزائر نفسها ليست ناجحة بحال من الاحوال ، فلقد استنزفت جانبا كبيرا من اموال فرنسا ودماء ابنائها .

وهناك نابليون الثالث تملأ مخيلته أفكار غريبة عن شمال أفريقية ، فلقد

---

(٢) انظر المذكرات والتقارير التى دونها القنصل الانجليزى ريتشارد الى حكومته فى السنوات التى بين ١٨٥٧ ، ١٨٦٠ ، وتمتاز هذه المذكرات بطولها وبكثرة التفاصيل عن موقف الفرنسيين فى تونس والجزائر ، وهذه المذكرات والتقارير موجودة فى وزارة الخارجية الانجليزية تحت عنوان تونس T.O.102

كان يظن ان من السهل تطبيق فكرة القومية فى هذه الارجاء ، فكان يحلم بانشاء مملكة عربية فى الجزائر صديقة لفرنسا وموالية لها . ولكنه كان فى نفس الوقت يفكر فى انشاء اتحاد أوروبى مرماه السلام ـ وظن ان الدول تستطيع ان تنسى ما بينها من حزازات وخلافات اذا اقتسمت فيما بينها الممتلكات الاسلامية الواقعة على البحر المتوسط . ولكن مبادىء السياسة التقليدية الفرنسية ومصالح رجال الجنوب فى فرنسا كانت تدفعهم دائما الى المطالبة باتباع سياسة نشيطة فى شمال افريقية والبحر الابيض المتوسط ، وكانت لآرائهم قيمة كبيرة فى توجيه السياسة الفعلية للحكومة الفرنسية .

ولقد انصرفت الافكار فى فرنسا عن تونس مؤقتا حين عاد الخطر الالمانى الى الظهور شرقى نهر الرين ، فما كانت الحكومة الفرنسية بقادرة على ان تفرط فى صداقتها لانجلترا وايطاليا باتباع سياسة قوية فى تونس قد تضطر هاتين الدولتين الى ان تتخذا موقف العداء نحو فرنسا .

ثم جاءت الكارثة الحربية والسياسية التى حلت بفرنسا فى سنة ١٨٧٠ ففيرت الى حين الموقف السياسى فى تونس ، فازداد امل الانجليز والطليان فى اضعاف النفوذ الفرنسى والانفراد بالنفوذ فى هذه البلاد . ولكن فرنسا نهضت من كبوتها بسرعة ، وعادت الى نشاطها فى تونس ، فعاد الموقف الى التفير وخاصة بعد ان عينت فرنسا Roustan ممثلا سياسيا وقنصلا جنرالا فى تونس .

وروستان رجل يمتاز بالدهاء واللباقة وبعد النظر ، ثم بنشاط متدفق وايمان بمهمة فرنسا السياسية والحضارية فى البحر الابيض المتوسط ، واليه يرجع الفضل الى حد كبير فى تمهيد الطريق لبسط الحماية الفرنسية على تونس . فشخصيته وصبره وسعة ثقافته وتجاربه وحسن اعداده لوظيفته بعث على احترام الرجال له وتعلق النساء به ! ولقد لعبت المرأة دورا هاما فى مسألة تونس !

تلقى روستان تعليمه العالى السياسى والنظرى المنظم فى باريس ، وذلك بعكس ود القنصل الانجليزى الذى لم يزد تعليمه على مدرسة ثانوية فى اكستر . ومن سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٤ مثل روستان دولته فى جملة مناصب قنصلية مهمة فى الشرق الادنى ، فى ازمير والقاهرة والاسكندرية وبيروت . فتدرب تدريبا عمليا ممتازا ، وعرف الكثير عن أحوال الامم الاسلامية ودرس الشرقيين دراسة وافية ولذا اذا كان البحر الابيض المتوسط فى نظر الانجليز اهم حلقة فى سلسلة المواصلات الامبراطورية البريطانية الى الهند ، فهو يمثل فى نظر روستان بحيرة فرنسية ممتلئة بالذكريات الفرنسية المجيدة ، ذكريات صليبييها وبحارتها وتجارها ، فروستان مؤمن بمستقبل بلاده ، ويرى ضرورة تفوق فرنسا فى ذلك البحر الذى تطل عليه سواحلها الجنوبية .

لقد وجد روستان فى سنة ١٨٧٤ ان نفوذ فرنسا فى تونس لايزال يعانى من هزيمتها الكبرى امام الالمان فى سيدان ، ومن سوء تصرف القناصل قبله . فبوتمليو Botmiliau كان قد بلغ من الكبر عتيا والم به الياس فى سنة ١٨٧٠ فلم يترك له املا فى اصلاح مركز فرنسا بعد هزيمتها الساحقة . وجاء بعده دى فلا de Valiat الذى جعل مهمته طرد الوزير التونسى الخزنة دارمن الحكم . وافلح بعض الشىء فى اصلاح مركز فرنسا . الا ان بسمارك المستشار الالمانى ساءه مايتمتع به الفرنسيون من نفوذ فنصح للباى بالا يقيم كبير وزن لمركز فرنسا . ما بقى من نفوذ فرنسا اضاع معظمه دى بلنج de Billing الذى سمح لزوجته الانجليزية بالتدخل فى امور السياسة ولم يكن له ولا لزوجه من بعد النظر والحكمة السياسية ما يمكنه من تقوية مركز بلاده . فاشتبك هو وزوجه فى دسائس عقيمة هبطت بمركز فرنسا وانتهت باستدعاء حكومته له فى آخر الامر وتعيين روستان محله .

وما منع نفوذ فرنسا من الانهيار تماما فى سنة ١٨٧١ هو أن شروط الصلح بينها وبين الالمان لم تمس امبراطوريتها الاستعمارية . وبالرغم من الضعف الشديد الذى الم بفرنسا فى هذه السنة فان ساستها صمموا على المحافظةعلى الامبراطورية بكل ما فى وسعهم ، فقضوا قضاء مبرما على الثورة العنيفة التى قامت فى الجزائر فى سنة ١٨٧١ . فكان ذلك دليلا ناصعا على أن فرنسا لازالت قوية فى شمال افريقية . ولكن نمو النفوذ الفرنسى فى تونس يرجع بلا ريب الى روستان ، فلقد نجح فى تدعيم النفوذ الفرنسى فى تونس بمكافحة النفوذ الانجليزىوالحصول على امتيازات متنوعة لبلاده ، كان اهمها الخط الحديدى من تونس الى حدود الجزائر لشركة بونا جلما الفرنسية ، واهمية ذلكالمشروع كبيرة فهو يمر فى اخصب اراضى تونس وافناها ، ثم قيمته لاتقدر فى تسهيل نقل الجنود من الجزائر الى تونس فى الوقت المناسب . ولقد وجد روستان كل تأييد من حكومته ، فكل من دى برجلى Broglie ودكاز Decazes (وزيرى فرنساللامو والخارجية) اتبع بكل دقة وعزم سنة الوزارات الفرنسية قبله فيما يختص بالسياسة التقليدية ، فتونس فى نظر الرجلين « مدخل الجزائر ومفتاح ممتلكات فرنسا فى شمال افريقية » (١)

على ان مسالة تونس بعد سنة ١٨٧٠ لم تعد مسالة فرنسية انجليزية ايطالية فحسب ، فلقد اصبحت مسالة دولية قبل كل شىء . وسنجد أن البت فى مصير تونس لم يعد فى يد انجلترا او فرنسا او ايطاليا وانما كان الى حد كبير بيد المستشار الالمانىبسمارك ، فلاتستطيع واحدة منالدولالسابقة

---

(١) عن Langer : European Alliances ص ٢١٨

اتخاذ موقف حاسم دون الحصول على موافقته وتأييده . ولقد وجد بزمرك فى صيف سنة ١٨٧٨ أن مصلحة المانيا تقتضى التفاهم مع انجلترا فى هذا الشأن، وأن يعطى الفرنسيين الحرية ليفعلوا ماشاءوا فى هذه البلاد ، ولتفصيل ذلك نقول :

ان مسألة تونس اصبحت وثيقة الصلة بالعلاقات الالمانية الفرنسية منذ سنة ١٨٧١ ، ولقد تطورت هذه العلاقات خلال السنوات بين ١٨٧١ ، ١٨٧٨ من علاقات تحد وعد الى علاقات ود ومجاملة وصفاء .

من بعد سنة ١٨٧٠ اتخذ بسمارك موقف المعارضة لسياسة التوسع الفرنسية بصفة عامة ، وفى تونس بصفة خاصة . وذلك راجع بلا شك الى استمرار العداء بين الدولتين ، فالاحوال فى فرنسا ما كانت عاملة على كسب ثقته واسترضائه ، ومن هنا كانت محاولاته لوضع العقبات أمام نمو النفوذ الفرنسى فى تونس .

كانت سياسة بسمارك فى اول الامر قائمة على قمع فرنسا وارهابها ، فما كانت سيطرة العناصر الكاثوليكية فى باريس ، وماكان وجود حزب الانتقال عاملا على ارتياحه أو تهيئة الجو لان يمد يد الصداقة لفرنسا ، وخاصة وان حكومات اليمين الى سنة ١٨٧٥ كانت تعمل جاهدة على التقرب من روسيا . وكانت سياسة بسمارك وجهوده مدى حياته تعمل دائما على الا توجد المانيا فى موقف يضطرها الى الحرب فى جبهتين فى وقت واحد . ولذا كانت سياسة المستشار الالمانى الى سنة ١٨٧٥ العمل على عزله فرنسا من الناحية السياسية ومنعها من عقد محالفات مع روسيا أو ايطاليا والوقوف أمام مطامعها الاستعمارية .

ولكن ازمة سنة ١٨٧٥ التى استحكمت بين فرنسا والمانيا بينت له ان سياسة القمع والتهديد والوعيد لم تكن سياسة حكيمة . ولذا رأى اتباع سياسة استصلاح الدول الكبرى جميعا وخاصة فرنسا على حساب الدولة العثمانية التى لم يكن يهتم بمصيرها ولا بضياع حقوقها فى ذلك الوقت . ولذا ففى نظره تستطيع روسيا ان ترضى مطامعها فى البلقان ، وتستطيع انجلترا اخذ مصر، بينما تستطيع فرنسا الذهاب الى تونس اذا ارادت . على شرط أن تتبع سياسة مرضية لالمانيا .

ولذا فى رسالته المؤرخة ١٠ يناير ١٨٧٥ الى هوهنلوه السفير الالمانى فى باريس Hohenlohe بسط بسمارك وجهة نظره هذه بالنسبة لفرنسا . فقال ان فرنسا تستطيع ان تجد فى شمال افريقية وفى تونس مجالا واسعا للتعبير عن نشاطها السياسى . وليس من المؤكد ان بزمرك بذل مجهودا لتوضيح وجهة النظر هذه لفرنسا فى هذا العام ، لان وزارة اليمين فى فرنسا لازالت مسيطرة

على الامور ، ثم ما كانت فرنسا فى ذلك الوقت تستطيع قبول مثل ذلك العرض الذى يهدد علاقاتها الودية بانجلترا وايطاليا ويؤثر تاثيرا سيئا فى علاقاتها مع روسيا .

ولكن انتخابات سنة ١٨٧٧ فى فرنسا . ووصول الجمهوريين الى الحكم فى اواخر هذه السنة كانت عاملة على تحقيق سياسته الجديدة . فالجمهوريون كانوا قد صرفوا النظر عن سياسة التحالف مع روسيا . وعملوا على توثيق الصلات بين باريس وبرلين ، بان بعثوا الى برلين سفيرا جديدا معروفا بصداقته لالمانيا هو سان فاليير Saint-Vallier . ولذا كانت سنة ١٨٧٨ فاتحة لعلاقات جديدة بين فرنسا والمانيا ، فالجمهوريون فى فرنسا مصممون على اتباع سياسة سلمية ، وحتى زعماؤهم من مثال جامبتا Gambetta تركوا مؤقتا سياسة الانتقام ، وفضلوا ان ينسوا الى حين مسالة الالزاس واللورين ليؤكدوا روابطهم بجارتهم على نهر الرين ، وعلى العكس ذلك اصبح بسمارك مستعدا لارضاء مطالب فرنسا الاستعمارية وخاصة فى تونس .

واما من حيث انجلترا ، فلقد تغير موقف الحكومة الانجليزية بالنسبة لتونس منذ سنة ١٨٧٨ ، وفعلا فكر وزير الخارجية الانجليزية سولسبرى Salisbury فى ارضاء فرنسا على حساب تونس كما فكر فى هذا بسمارك ، لانه فى شهرى ابريل ومايو تناقش السفير الالمانى منستر Münster فى هذه المسالة مع سولسبرى . ووجدت المانيا ان انجلترا موافقة على الفكرة بصفة عامة . فلقد بعث سولسبرى الى ليونز فى باريس يقول له ، ان تونس بطبيعة الحال امتداد لمنطقة النفوذ الفرنسى ، (١) . وكان سولسبرى مصمما على ان يحصل على موافقة فرنسا على سياسته الشرقية واحتلال انجلترا لقاعدة فى شرق البحر المتوسط نظير تركه لها حرية التصرف فى امور تونس ، وبذلك مهدت الامور لفرنسا قبل ان تدخل الدولتان مؤتمر برلين فى صيف سنة ١٨٧٨

ولقد قبلت فرنسا الاشتراك فى مؤتمر برلين على أساس جملة شروط وضعتها ومن أهمها الا تتعرض مناقشات المؤتمر لمسائل سوريا والاراضى المقدسة ومصر وتونس ، ووافق على ذلك أعضاء المؤتمر من الدول الكبرى ، وقصر المؤتمر بالفعل مهمته على بحث المسائل الناشئة عن معاهدة سان ستفانو (المعاهدة الروسية التركية) . ولكن اثناء انعقاد المؤتمر وبناء على خطة موضوعة

---

(١) انظر Newton : Life of Lyons مجلد ٢ ص ١٣٩ . والوثائق الالمانية منستر الى بزمرك ٢٠ ابريل ١٨٧٨ ؛ صحيفة Times ٥ ابريل ١٨٨١ .

ارغمت انجلترا الباب العالى على الموافقة على احتلال انجليزى لقبرص والا عملت على تدمير دولته . واعتقدت فرنسا حين وصلت انباء هذا الاتفاق اليها أن المعاهدة التركية الانجليزية الخاصة بقبرص قد قلبت الوضع السياسى فى البحر الابيض المتوسط بطريقة لايرضاها القانون ولا يقرها العرف الدولى ولا تقبلها السياسة الفرنسية أيا كان نوع الحكومة فى باريس .

علم وادنجتون Waddington وزير خارجية فرنسا ورئيس مندوبيها فى المؤتمر بهذه المعاهدة قبل انقضاء المؤتمر بعدة ايام ، فكان اضطرابه وقلقه عظيما ، وثارت ثائرة الرأى العام الفرنسى لامضاء هذه المعاهدة وراء ظهور الدول ، ولما انطوت عليه من ضمان تفوق النفوذ الانجليزى فى شرقى البحر الابيض المتوسط وانتقدت الصحف الفرنسية السياسة الانجليزية انتقادا لاذعا ، وطالبت احدى الصحف ، وهى الربيبك فرانسيز Republique Française صحيفة الجمهوريين ممثلى فرنسا بمغادرة المؤتمر دون امضاء معاهدة برلين ، وحملت على سياسة انجلترا بشدة ، وبينت ان المعاهدة التى احتل بها الانجليز قبرص قد جعلت من سلطان تركيا تابعا لملك انجلترا (١) . وقالت احدى الصحف الاخرى أن سياسة انجلترا قد اصبحت سياسة نفعية صرفة ، سياسة التجارة فى الدول والشعوب ، واعلنت انه بامضاء هذه المعاهدة قد تضعضع نفوذ فرنسا فى الشرق الادنى (٢) .

ثم تغيرت فجأة لهجة الصحافة الفرنسية ، واخذت تسترسل فى تبرير سياسة انجلترا . وكان هذا التغير الفجائى نتيجة للاتفاق الذى تم سرا بين وادنجتون وسولسبرى فى برلين ، ذلك الاتفاق السرى لم يعد امرا سريا بعد ذلك بثلاث سنوات .

كيف تم ذلك الاتفاق ؟ . لقد سر بسمارك رئيس المؤتمر من سلوك ممثلى فرنسا فى المؤتمر ، وخاصة بعد ان وجد هو وممثلو انجلترا أن موقف ايطاليا قد أصبح مريبا لايبعث على الثقة والاطمئنان (٣) .

ولم يعلم ممثلو ايطاليا بمعاهدة قبرص الا من الصحف التى نشرت اخبارها . ولقد اتصل سولسبرى بوادنجتون واخبره بأمر قبرص ، فبين وادنجتون ان

---

(١) بتاريخ ١٠ يوليو ١٨٧٨ .

(٢) Le Constitutionnel ١٣ يوليو ١٨٨٧ .

(٣) فلقد وقف كورتى Corti رئيس ممثلى ايطاليا فى المؤتمر موقفا اشتم منه الالمان والانجليز روح الصداقة لروسيا والعداوة للنمسا ، ولذا لم يكن بزمرك رفيقا بالساسة الطليان ولا مجاملا لهم ولا حريصا على مصالح ايطاليا .

الراى العام الفرنسى فى ثورة عنيفة وان هذه الاتفاقيـــة هى فى الواقع اذلال جديد لفرنسا وهزيمة كبيرة لسياسةالجمهوريين قد تودىبمركزهم السياسى، وانه لذلك ليس امامه الا مغادرة المؤتمر .

وكان كل من سولسبرى وبسمارك قد استعد لمواجهة ذلك الموقف. ولذا فقد شرح سولسبرى لودنجتون روح الود الذى تنطوى عليه سياسة انجلترا نحو فرنسا ورغبة الحكومة الانجليزية فى تعويض فرنسا وارضائها وذلك بان تترك لها حرية التصرف تامة فى مصير تونس ، وان السياســـة الانجليزية لن تعمل على ايجاد تغيير فى حالة الشرق الادنى السياسية دون استشارة فرنسا ودون موافقتها . وانه اذا كانت للنمسا مهمة تؤديها للحضارة فى البلقـــان ، وانجلترا فى تركيا الاسيوية ، فمهمة فرنسا بلا شك فىتونس وشمالىافريقية. وهذا هو تفسير ملاحظات سولسبرى لودنجتون فيما يختص بتونس «افعلوا ما تشاؤون هناك ، وستضطرون الىاحتلالها ــ انكم لاتستطيعون ترك قرطاجنة طويلا فى يد البرابرة » (١) وايد بسمارك بكلارتياح قول سولسبرى فبسمارك لم يكن يحترم تركيا ولا تهمه سلامتها ولا يعبأ بأى مصير تلاقيه تونس طالمـــا ارضى اصدقاءه . تم هذا كله فى برلين دون علم احد من اعضاء المؤتمر المنعقد بهذه المدينة .

وهنا قد يثور هـــذا السؤال ؛ من هو صاحب الفكرة فى الاصل ، هل هو سولسبرى او بسمارك. ومنالطبيعى ان يكونبسمارك هو الذىفكر اولافىهذه المسالة ، ويقول بورجوا Bourgeois وباجس Pagès المؤرخان الفرنســـيان (٢) ان بسمارك هو الذى عرضالمسالة فى برلين على ودنجتون لما عرفت مســـألة قبرص وانه هو الذى ارغم انجلترا على ان تحذو حذوه . ويدللان على وجهـــة نظرهما بالامتعاض الذى ابداه سولسبرى فيما بعد لتسجيل فكرته كتـــابة حين طلب منه وادنجتون ذلك . والواقع غير ذلك فراى المؤرخين الفرنسيين ناشىء من الفكرة التى تقول ان سولسبرى لم يفكر فى هذا الموضوع قبل ذهابه الى برلين . وهذه فكرة كما راينا غير صحيحة . فسولسبرى فكر فى هـــذه المسالة جديا حين فكر فى مسالة قبرص لكى يستطيع اسكات فرنسا اذا هى احتجت على احتلال الانجليز لهذه الجزيرة ؛ وحدث ان نضجت هذه الفكرة فى ذهن سولسبرى فى وقت نضجت فيه ذهن المستشار الالمانى لسبب آخر. وشهادة وادنجتون نفســـه لاتترك اى شك فى ان الذى عرض الفـــكرة اولا فى

---

(١) انظر Safwat : Tunis and The Great Powers ص ٢١٢ .

(٢) فى كتابهما Les Origines et Les Responsabilités de la Grande Guerre صفحات ١٩١ ، ١٩٢

برلين هو سولسبرى ويقول ان بسمارك هو الذى وافق على المقترح الانجليزى. وذلك فى رسالته المؤرخة ٢١ يوليو ١٨٧٨ الى هاركورت سفير فرنسا فى لندن (١) .

وقبل ان يغادر مندوبو فرنسا المؤتمر — كما يروى جبريل هانوتو ، كتبوا بما حدث بشأن تونس الى رئيس الجمهورية المارشال مكماهون ، فما أن وقع نظر المارشال على هذه الوثيقة حتى صاح : « انهم يريدون اثارة ايطاليا ضدنا ، لا أستطيع الموافقة على ذلك ، انا لا اقبل الدخول فى حرب أخرى » ، ووافق مجلس الوزراء على آرائه . وهناك رواية مناقضة لهذه تماما يرويها وزير الداخلية الفرنسية فى ذلك الوقت مارسير Marcère بأن المارشال والجنرال شانزى كانا متفقين فيما بينهما على ضرورة تونس للجزائر . وان المارشال وافق على عمل وادنجتون لما سيسبغه ذلك على عهد رياسته للجمهورية من مجد وعظمة (٢) .

ومما لاشك فيه ان كلا من المارشال والحكومة لم يعضد فكرة الاستفادة الناجزة من المقترح الانجليزى الالمانى ، فلم يفكرا جديا فى اتخاذ خطوة عملية لاحتلال تونس حتى لاتقع فرنسا فى خلاف شديد مع ايطاليا قد يؤدى الى وقوع حرب بينهما .

ترك سولسبرى للفرنسيين حرية التصرف فى تونس ، ولكنه رفض رفضا تاما أن يعطى فرنسا أى وعد بالتأييد ضد ايطاليا اذا وقعت فرنسا فى خلاف مع هذه الدولة . وعندما رجع وادنجتون من المؤتمر بين للمارشال مكماهون وجهة نظره فوافق عليها ولاحظ أن فرنسا يجب الا تضيع هذه الفرصة الذهبية وخاصة بالنسبة لبلاد تطمع فرنسا فى تفوق نفوذها فيها من مدة طويلة .

ولقد رأت فرنسا ضرورة الاحتفاظ بالغنيمة التى عرضت عليها فى برلين . وكانت آراء الساسة فى فرنسا متجهة الى المحافظة على الامبراطورية الفرنسية والزيادة فيها ما مكنت الظروف ، فلقد أصبح لشمال افريقية جاذبية خاصة وسحر عند الفرنسيين ، وتعالت أصوات الاقتصاديين المؤمنين بالاستعمار بضرورة الاستفادة من نشاط فرنسا المتدفق فينادى بول لروى بوليو Paul Loroy Beaulieu « الاستعمار لدى الشعوب الحديثة » « يجب ان نذكر هذه الحقيقة لامتنا . يجب ان نطرد الافكار التى تؤدى بنا الى كوارث

---

(١) الوثائق الفرنسية السياسية 1ère Série D. D. F. مجلد ٢١٠٢ ٢١ يوليو ١٨٧٨

(٢) فى La France Contempotaine مجلد ٤ ص ٢٨٨ .

جديد فامام خمسة واربعين مليونا من الالمان الذين سيصيرن ستين فى مدى عشرين عاما لم تعد فكرة الانتقام فكرة صائبة » (٢) .

فيجب اذن ان تحول فرنسا انظارها ، فتطرح فكرة الانتقام من المانيا حانيا الى الاستعمار خارج أوربا ، فليس من صالح فرنسا أن تفقد حيويتها ونشاطها فى الحزن أو التأسى على الماضى ، وانما ضرورى لها الحركةوالنشاط.. ففى شمال افريقية تستطيع فرنسا التعبير عن نشاطها وحيويتها دونالتعرض لاى أذى أو خطر . لقد وضعت فرنسا كما رأت فى شمال افريقية أساسا لامبراطورية فرنسية ونقطة ارتكاز منها تستطيع أن تؤدى رسالتها للحضارة.

رات فرنسا ضرورة الاحتفاظ بتونس لنفسها ، ورأى فريق من رجال الحرب ضرورة الاسراع باحتلالهذه البلاد ، ولكن فرنسا مابرحت غير مستعدة للقيام بخطوة حاسمة بالاستيلاء بالقوة على تونس ، فالانتقام من المانيا لازال حلما قوميا ، وكان رجال حزب الانتقام يرون أن كل مخاطرة عسكرية فى الخارج لايكون الغرض منها استرجاع الالزاس واللورين جريمة لايغتفرها الوطن ، وفوق ذلك لازالت ذكريات مغامرات الامبراطورية الثانية عالقة فى الاذهان تثير الحذر والتريث ، وكان اهتمام فرنسا الاول هو المحافظة على مركزها فى أوربا ، فهى لاتريد اثارة مشاكل قد تفقدها عطف احدى الدول الكبرى ، كذلك ولو ان الجيش الفرنسى قد وصل الى درجة لابأس بها من القوة الا ان دخول السياسة فيه ما كان عاملا على استتباب النظام الدقيقبين صفوفه ، فلقد كان الجيش فى فترة تحول الى الجمهورية ، وكذلك كان عدم استقرار النظام الجمهورى داعيا الى التريث وزيادة الحذر والاهتمام قبل كل شىء بنشر الدعاية للجمهورية وتقوية مركزها داخل فرنسا . ثم هناك كان الحذر والخوف من المانيا والشك فى وعودها وخشية اثارة عداوة ايطاليا .

كل هذا دعا الى التفكير والتردد ، ووصلت الحكومة بعد امعان النظر الى ان خير الحلول فى ذلك الوقت ربما كان الاقتصار على مد النفوذ السلمى . وتركت فكرة الاسراع الى الاحتلال ، ولكن الحكومة الفرنسية صممت على أن يكون النفوذ الفرنسى فى هذه البلاد متفوقا تفوقا لاينازعه احد . وعزمت كذلك على أن تطلب من أوربا الاعتراف بتفوق نفوذ فرنسا ، وصممت على أن تمنع بالقوة كل دولة تحاول تثبيت أو تنمية نفوذها فى هذهالبلاد .

كان هذا رأى وادنجتون بعد رجوعه من برلين ، وكان اول خطوة خطاها

---

(٢) عن Carroll : French Public Ipinion and Foreign Affairs صفحات ٨٥ ، ٨٨ .

هى أن يأخذ من انجلترا ضمانات كتابية ، يسجل موقفها الذى قرره لورد سولسبرى شفويا فى برلين . وقبل ذلك فى ١٩ يوليو اتصل وادنجتون بقنصله فى تونس ، واخبره أن فرنسا قد تضطر الى فرض حمايتها على تونس ؛ وطلب منه الاستنارة فى المسائل الاتية : هل ن الممكن اقناع الباى سلميا بعقد معاهدة اتحاد مع فرنسا يعترف فيها بالحماية الفرنسية واحتلال فرنسا لبعض المراكز الاستراتيجية مثل جولتا وبنزرت . واذا رفض الباى ذلك الاقتراح هل لدى تونس قوة كافية للدفاع عن نفسها ، وكم من الجنود تتطلبه حملة فرنسية لارغام الباى على قبول المطالب الفرنسية ؟ هل هناك خطر فى احتلال ايطاليا لطرابلس (١) .

وفى اليوم الثانى وصلت آراء القنصل باريز : قد يستطيع الباى أن يقبل الحماية لسوء حالة البلاد المالية، ولكن ليس لدى الباى قوة يستطيع أن يدافع بها. والاهالى ميالون للسلم ، وليس لديهم السلاح ولا التدريب اللازم للحرب واما القبائل فيستطاع عزلها فى الجبال ، وخير طريقة تستخدمها فرنسا هى ان روستان بصفته الشخصية يفاوض الباى فى أمر الحماية ، وبهذا لايحرج مركز الحكومة الفرنسية اذا رفض الباى مطالب القنصل الفرنسى .

وفى هذه الاثناء وصلت اخبار سارة من لندن فلقد رجع ديزريلى Disraeli من المؤتمر الى لندن واعلن فى مجلس اللوردات « حسن الصلة بين فرنسا وانجلترا » ، ووصف فرنسا بانها احدى دول العالم الكبرى وان انجلترا كانت تعمل دائما على كسب ود فرنسا . ولذا انتهز وادنجتون هذا الظرف المواتى واتصل بالمركيز دى هاركورت سفيره فى لندن ، وبعث اليه برسالتين مؤرختين ٢١ يوليه ، وبهما تفصيلات عن المحادثات الخاصة التى دارت بين وادنجتون وسولسبرى وبيكونزفيلد فى برلين . والرسالة الاولى تختص بمسائل مصر والشام ... والثانية ، وهى التى تهمنا فى هذا المقام ، خاصة بتونس : ففى برلين تناقشت فرنسا وانجلترا فى مصير تونس فى اكثر من محادثة ، واكد بيكونزفيلد ما صرح به سولسبرى من عرض تونس على فرنسا . واصر وادنجتون على أن تسجل انجلترا تصريحاتها كتابة ، والا اتخذت العلاقات الفرنسية الانجليزية شكلا آخر (١) .

ولقد غضب سولسبرى من تسرع وادنجتون ، لانه اى سولسبرى لم يكد

---

(١) انظر اوثائق الفرنسية السياسية 1ère Série D. D. F. مجلد ٢ رقم ٣٢٨ .

(١) نفس المرجع السابق أرقام ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ .

يستريح من اعمال المؤتمر المضنية ومن مهاجمة جانب من الراى العام البريطانى لماهدة قبرص حتى يجد فرنسا مصرة على تسجيل اقواله، كذلك كان سولسبرى قد عرف عدم ارتياح ايطاليا الى قرارات مؤتمر برلين، فاى تصريح علنى من ناحيته بالنسبة لتونس قد يدعو ايطاليا الى الاسراع الى عقد تحالف مع روسيا أو عرقلة تنفيذ قرارات مؤتمر برلين . ولم يكن غضب سولسبرى راجعا الى ندمه على مافعل فى مدينة برلين كما يظن البعض .

ولما قرأ السفير الفرنسى الرسالتين لسولسبرى ازاد غضب الاخير ، فلقد وجد ان اللهجة العادية التى استخدمها مع وادنجتون قد سجلت فى وثيقة رسمية قد تنشر فى يوم من الايام . ولذا كان يقاطع السفير الفرنسى مبديا بعض ملاحظات لاذعة . وارسل بالفعل الى سفيره ليونز فى باريس يقول له أن وادنجتون جعله يتحدث عن تونس كأنها ملكه الخاص . « والذى قلته له (اى لودنجتون) أنه اذا هيأت الظروف لفرنسا احتلال تونس فانجلترا لن تقدم أى اعتراض » ، وقال سولسبرى للسفير الفرنسى ان انجلترا لاتستطيع التصرف فيما لاتملك ، وأنه يود أن يكتب وادنجتون تصريحات برلين فى لهجة سياسية وانه أى سولسبرى لن يستطيع الاجابة عليها قبل ان يستشير مجلس الوزراء الانجليزى .

ولم يرق السفير الفرنسى موقف سولسبرى ، فبعث الى وزير الخارجية الفرنسية يذكره بأن سولسبرى ربما يكون قد غير افكاره . على ان سولسبرى عرض المسألة على بيكونز فيلد ورأى الاثنان ان ليس من حسن السياسة فى شىء اجبار فرنسا على الالتجاء الى المعسكر الروسى ، وانه من صالح انجلترا ان تجيب طلب وادنجتون . ولذا كان على الوزير الفرنسى أن يكتب طلبه بلهجة ملائمة ، فصاغ تصريحات سولسبرى فى برلين كالاتى : « افعلوا فى تونس ماترونه ملائما ، ان سولسبرى يرى من المستحيل بقاء النظام الحالى فى تونس وانه على فرنسا ، كما ترى الحكومة الانجليزية أن تقوم باصلاح هذا البلاد . »

واجاب سولسبرى على ذلك فى ٧ اغسطس ، ووصف مادار بينه وبين وادنجتون من محادثات فى برلين ، واعترف بضرورة تفوق نفوذ فرنسا فى تونس ، ولكنه اصر على ان تكون هذه الوثيقة سرية لاتذيعها فرنسا الا بعد موافقة انجلترا ، كما انه بين لفرنسا ضرورة اعتمادها على نفسها فى حالة اعتراض ايطاليا (١) .

---

(١) انظر Vol. 143. Granville Papers - Printed for the use of the Cabinet.

وهذه الاوراق لم تنشر بعد وموجودة فى ال Public Record Office

فى هذه الوثيقة يقول سولسبرى : « بأن انجلترا رات بسرور عظيم نجاح التجربة التى قامت بها فرنسا فى الجزائر والمهمة الحضارية العظيمة التى تقوم بها فى هذه البلاد . وان انجلترا شاعرة بأن وجود فرنسا فى هذه الاقطار تؤيدها قوة حربية عظيمة لابد وان يعطيها نفوذا كبيرا فى تونس ... وان انجلترا ليست لها مصالح خاصة فى هذه البلاد ... » ويرى سولسبرى أن النظام الموجود فى تونس يستطيع ان يستمر مدة طويلة اذا لم تزعزعه العواصف الخارجية ، ولكن هذا لايغير من موقف انجلترا (١) .

وبذلك انتهى قلق وادنجتون من ناحية انجلترا ، وعاد الى قنصله فى تونس ، يطلب منه ان يصف له الاثر الذى تركته الشائعات عن عرض انجلترا ، وان يبين موقف كل من القنصلين الانجليزى والايطالى ، ثم على روستان أن يعد مشروعا لمعاهدة مع الباى تقرر الحماية على تونس ، ثم عليه ان يقرر عن الموقف المالى والسياسى فى هذه البلاد (٢) .

وبعث روستان بآرائه وسافر الى باريس بنفسه وبقى فيها جانبا كبيرا من اغسطس سنة ١٨٧٨ ، ولكن لم تستطع الوزارة الفرنسية ان تصل الى راى نهائى بشان الحماية ، فهناك عقبات لابد من تذليلها ، فلابد ان تضع فرنسا حدا لنشاط القنصل الانجليزى ريتشارد ود ، ثم هناك مسالةمعارضة ايطاليا فلا بد من التفكير فى تعويضها . وعلى فرنسا ايضا ان تعمل حسابا للشعور الاسلامى الذى ثارت ثائرته نتيجة لمعاهدة برلين ، ولذا اجل موضوع الحماية الى حين .

* * *

عرفنا ان الاتفاقية بين وادنجتون وسولسبرى كانت سرية ، ولكن الجو فى تونس امتلا بالشائعات عن هذه الاتفاقية فلقد نشرت صحيفة نمساوية وهى مونتاجز بلاط Montagsblatt بأن انجلترا اهدت تونس لفرنسا ، ولكن وادنجتون رفض هذه الهدية بحجة أنه يريد أن يرجع من برلين نظيف اليدين . ونقلت الصحف التونسية ذلك الخبر . فاثارت الدهشة والذعر فى تونس ، فالباى لم يكن يستطيع ان يتكهن بالدواعى التى جعلت الانجليز يغيرون سياستهم ، وكان امامه دائما مصير الجزائر يقض مضجعه . واما القنصل الانجليزى فقد اخذ ينعى مجهود حياته كلها ، واما الجالية الايطالية فى تونس

(١) نفس المصدر ، T. 2 1ère Série D. D. F. رقم ٣٣٤ .
Blue Book : Tunis 1881\٥٦ ، ١٥٥ مجلد ٢ ص Newton: Lord Lyons

(٢) الوثائق السياسية الفرنسية T. 2 - 1ére Serie D. D. F رقم ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

فما كانت تستطيع ان تصدق أن أى وزير ايطالى يستطيع الموافقة على اتمام هذه الصفقة لفرنسا .

لم يفض سولسبرى لقنصله بما حدث حقيقة فى برلين ، بل جعل الامر سرا مكتوما عنه فحين استفسر القنصل الانجليزى من حكومته عن حقيقة الموقف حتى لايترك الجو السياسى تسممه شائعات قد تكون غير صحيحة ، لم يجب سولسبرى اجابة مقنعة وانما اقتصر على أن ذكر لممثله فى تونس بأن حكومة جلالة الملكة م تعرض على فرنسا ضم تونس ، وهذه الرسالة تما تدل الفاظها فقط لا تختلف مع ماحدث فلم تطلب انجلترا الى فرنسا ضم تونس ، وطار القنصل الانجليزى بذلك التصريح الى الباى فخفف من قلقه ، ولكنه لم يقنعه تماما فالشائعات كانت قد نجحت فى كهربة الجو السياسى (١) .

ويحسن روستان وصف حالة البـاى حين يقول : « ان البـاى تنتابه نوبات قلق واطمئنان ، فيصيبه الجزع حين تردد الصحافة نبأ اعطاء تونس لفرنسا ، ويصيبه بعض الاطمئنان حين يزوره القنصل الانجليزى والقنصل الايطالى فهما يحاولان أن يثبتا لديه أن مسألة تونس لم تعرض فى برلين ولا فى غيرها ... وأن فرنسا تريد ارهابه ... وأن حالة فرنسا الداخلية لاتسمح لها بالقاء النظر الى ما وراء حدودها » .

ولقد استغل ممثل فرنسا هذا الظرف ، فأثار مخاوف الباى من ناحية السلطان . وبين له أن بريطانيا قد عرضت بالفعل تونس على فرنسا ، ولكن فرنسا التى تريد ان تثبت لدى البـاى « فضيلتها السياسية » وصداقتهـا رفضت ذلك العرض . ولكن القنصل الانجليزى لم يلبث ساكنا امام هـذه المناورات فلجأ الى وسيلة طريفة فترجم تصريح لورد بيكونزفيلد فى ١٨يوليو ونشره فى مجلة الرائد التونسى . فىذلكالتصريح يؤكد لورد بيكونز فيلد تمسك انجلترا بسياسة المحافظة على ممتلكات تركيا ! واردف هذا بأن قدم رسالة شخصية للباى يؤكد فيها مصلحة انجلترا فى صيانة استقلاله .

ولم تستطع فرنسا قبول ذلك المسلك بأى حال ، ولذا لم يحدد وادنجتون بدا من الاتصال بسولسبرى ولخص له تقارير روستان عن مسلك القنصل الانجليزى ، وبين الا شىء يرضى فرنسا سوى سحب القنصل الانجليزى .

ولم يكن سولسبرى سعيدا حين قدم له ذلك المطلب ، ولذا اخذ يسوف فى تنفيذه ، فاضطر وادنجتون الى الالتجاء الى بسمارك ، وبعث الى سفيردفى

---

(١) وثائق وزارة الخارجية الانجليزيةF.O.102/111ورد الى سولسبرى ١٢ اغسطس ، ١٠ أكتوبر ١٨٧٨ .

برلين يستفسر منه اذا كانت المانيا تمانع فى فرض حماية فرنسية على تونس.

وكانت تصريحات بسمارك فى فريدرسروه (٥ يناير ١٨٧٩) أكثر مما كان الفرنسيون ينتظرون، ودعا بسمارك الى ذلك توتر العلاقات الروسية الالمانية ، فرأى ضرورة توثيق العلاقات مع فرنسا ، ولذا كان حديث بسمارك مع سان فلير يفيض بالود والمجاملة فيقول : « اعتقد ان الكمثرى التونسية قد نضجت وقد حان وقت قطافها ، وان عناد الباى وعدم المجاملة هو العامل الاساسى فى نضج هذه المسألة . وستفسد هذه الفاكهة او تسرق اذا تركتموها على الشجر مدة طويلة » ، ولقد اخترق بسمارك بنظره أذهان الفرنسيين وكشف عن شكهم فى صدق دوافعه ، ولذا اخذ يفسر هذه الدوافع ويبين حسن نيته نحو فرنسا . انه شاعر بما يقاسيه الجمهوريون فى فرنسا من صعوبات خارجية ، وانه ليس لديه مانع فى تأييد جمهورية صديقة ومعتدلة وفى ارضاء شعور الشعب الفرنسى الذى اثبت حسن طويته . ولذا فهو سيؤيد مخلصا السياسة الفرنسية فى البحر الابيض المتوسط ، وفى مناطق توسعها الطبيعية ، وان دافعه الاول هو السلام ، فالقيصر الالمانى يريد أن يمضى بقية عمره فى هدوء ومجد وانه غير ميال الى حرب أخرى (١) .

وحمل المستشار الالمانى على مشاكسات الباى ، « ذلك الحاكم الصغير المتبربر » لفرنسا ، واظهر استياءه من سياسة ريتشارد ود . واكد للفرنسيين انه كما يضمن لهم صداقة المانيا وتأييدها يضمن لهم صداقة النمسا ايضا ، وبين لهم رغبته فى أن يسود الصفاء بين انجلترا وفرنسا . واتصل بانجلترا لكى تزيل كل ما يعمل لتكدير علاقاتها بفرنسا .

ونتيجة لذلك الموقف اضطر سولسبرى الى ارسال تعليمات لقنصله فى تونس باتخاذ سياسة الحياد ، وكان ذلك تمهيدا لاقالته . واخبر سولسبرى وادنجتون بانه قد انهى عمل القنصلية الانجليزية فى تونس من الناحية السياسية . وتسلم ريتشارد خطاب اقالته وغادر تونس وانتهى نشاطه السياسى فى ابريل سنة ١٨٧٩ ، وبدا انتهت نهائيا المنافسة الانجليزية لفرنسا فى تونس .

وبقيت ايطاليا العقبة الوحيدة الاخيرة فى سبيل الفرنسيين فى تونس . فماذا كانت سياسة ايطاليا فى هذه البلاد .

فى الوقت الذى انعقد فيه مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ كان لايطاليا مركز

---

(١) الوثائق السياسية الفرنسية D. D. F. سان فالير ST. Vallier الى وادنجتون ٥ يناير ١٨٧٩ .

قوى فى هذه البلاد . فايطاليا تدعى انلها مصالح مهمة فى تونس لقربها الجغرافى ولصلاتها التاريخية بجنوب ايطاليا وصقلية، ولاستقرار عدد كبير من الايطاليين فى تونس ربما زاد على عدد اى جالية اوربية اخرى . ولقد اهتمت ايطاليا حتى اثناء حركة وحدتها بالاحداث السياسية التى تجرى فى تونس ، وحاولت التدخل تدخلا فعليا فى امورها سنة ١٨٦٤ ، ودخل القنصل الايطالى فى معركة حامية الوطيس فى ميدان المنافسة مع القنصلين الانجليزى والفرنسى ، وعمل على كسب الامتيازات لدولته وللرعايا الايطاليين بحيث اصبح لايطاليا المركز الثالث بعد فرنسا وانجلترا من حيث النفوذ . ولقد انتهزت ايطاليا فرصة الكارثة التى لحقت بفرنسا فى ٨٧١ فحاولت احتلال تونس ، ولولا موقف انجلترا لتم للايطاليين فرض سلطانهم على تونس واصبح منع الفرنسيين من احتلال تونس من اهم الاسس التى قامت عليها السياسة الايطالية .

وكانت فرنسا تعلم تماما ماهى مطامع الايطاليين فى هذه البلاد ، ولذا افكر وادنجتون فى طريقة يستطيع بها ان يوجه انظارهم عن تونس، وظن ان طرابلس قد تكون تعويضا كافيا لهم .

ولقد اتصل وادنجتون بسفير ايطاليا فى باريس تشالدينى **Chialdini** وبين له ان فرنسا لاتنوى احتلال تونس دون ان تعترف لايطاليا بحق الاستيلاء على بلاد اخرى . ثم بعث برسالة الى سفيره فى رومه ، يوضح فيها وجهة النظر الفرنسية . ويحذر فيها ايطاليا . ففرنسا مستعدة لان تدفع بالقوة اى اعتداء على تونس .

لاندرى اذا كانت ايطاليا قد عرفت محتويات هذه الوثيقة ، ولكن الذى لاشك فيه ان ايطاليا لم تكن تدرى ماذا حدث وراء الستار فى برلين ، لقد سمعت الحكومة الايطالية بالنائعات التى انتشرت ، ولكن سولسبرى لم يشف غليلها حين استفسرت منه عن صحتها ، فلم يعطها ردا واضحا . ومع هذه كانت الحكومة الايطالية تشعر بأن فرنسا قد بيتت النية على أن تحتل تونس يوما ما . وان الدولتين الالمانية والانجليزية تقفان موقفا غامضا .

ولقد حاول وادنجتون ان يستفسر فى برلين عما اذا كانت المطالب الايطالية تجد تشجيعا لدى المستشار الالمانى ، فاكد له بسمارك ان المانيا تؤيد فرنسا تأييدا تاما وانه قد نصح الايطاليين بأن يبتعدوا عن تونس اذ انها منطقة نفوذ فرنسى . وكانت لهجة بسمارك نحو ايطاليا متهكمة لاذعة ساخطة جارحة ، فعلاقات المانيا بايطاليا بعد مؤتمر برلين كانت سيئة .

ولكن النزاع بين فرنسا وايطاليا سيشتد نتيجة لمعاهدة برلين ، فثورة الراى العام الايطالى على هذه المعاهدة واتجاه اسياسة الخارجية الايطالية

هو الذى دعا الى ذلك ، فلقد رجع كورتى مندوب ايطاليا من مؤتمر برلين خاوى اليدين بينما رجعت الدول الاخرى محملة بالغنائم ، واختل التوازن الدولى فى البحر الابيض بعد احتلال الانجليز لقبرص ، وارادت ايطاليا ان تشترك مع انجلترا وفرنسا فى الاشراف على شئون مصر المالية ، فرفضت الدولتان ، ولذا اتجهت ايطاليا الى تونس محاولة تعديل مركزها فيها لاعادة التوازن الى البحر الابيض ولارضاء الشعور القومى الايطالى .

بدات ايطاليا تجد انه لوضع حد لنمو نفوذ فرنسا فى تونس يجب اولا الاعتراف بتونس كجزء من الدولة العثمانية ، وبذلك لاتستطيع اثارة مسألة تونس دون اثارة المسألة الشرقية كلها . ثانيا العمل على الحصول على امتيازات سياسية واقتصادية للايطاليين ، فلا تكون فرنسا صاحبة النفوذ وحدها . ثالثا تاكيد الصلات ببريطانيا لفصلها عن فرنسا ، وكانت ايطاليا مستعدة ان تعترف بتفوق المصالح البريطانية فى البحر الابيض ثمنا لذلك .

ونازعت ايطاليا كل خطوة يخطوها الفرنسيون فى تونس ، وبلغ النزاع اشده فى سنة ١٨٨٠ ، فاصبح صراعا واصطداما عنيفا . وبداذلك النزاع فى صيف سنة ١٨٧٨ حين عينت الحكومة الايطالية مسى Mussi ممثلا لها فى تونس فحاول ان يتفق مع الباى على فرض حماية ايطالية على تونس ، فلما فشل فى ذلك حاول أن يتفق مع الباى ليتنازل عن بنزرت لايطاليا او اعلانها ميناء حرا ففشل ايضا ، فلقد كان روستان يراقب أعماله ويقاومها ، واذا كان مسى قد نجح فى شىء ، فلقد نجح فى وضع تقرير عن موقف فرنسا واطماعها فى تونس ذكر فيه ان فرنسا تعمل على ضم بنزرت اليها ، كذلك بين ان من الضرورى لايطاليا أن تعين فى تونس رجلا ذا خبرة بأمور الشرق حتى يستطيع الكفاح مع روستان .

وفعلا عينت الحكومة الايطالية ماتشيو Maccio ؛ وهو رجل له خبرة بامور الشرق الادنى ، ويمتاز بنشاطه وعناده ، كان زميلا لروستان فى القاهرة وبيروت ، واشتد بينهما النزاع الى درجة الخصومة الشخصية . وصل ماتشيو الى تونس فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٨ على ظهر سفينة حربية ، ودخل تونس تحيط به ثلة من الجنود والبحارة ، واستعرض الجالية الايطالية التى خرجت لاستقباله ودقت الطبول ، ومر فى شوارع تونس مرور الابطال وسط الزهور والموسيقى والهتاف الى ان وصل لدار القنصلية ! .

ارادت ايطاليا بهذا التصرف التاثير على الباى والجاليات الاخرى لترى اهتمام ايطاليا العظيم بأمور تونس ، ومن ذلك الحين عرفت فرنسا أن ايطاليا قد شنت على نفوذها فى تونس حربا شعواء لاتبقى ولا تذر .

ولذا راى الفرنسيون بعد ان ظفروا بتأييد بسمارك اعادة النظر فى مسألة الحماية ومطالبة البـاى بضمانات للمستقبل ، راى وادنجتون ان يطلب من الباى الموافقة على حلف دفاعى يتعهد فيه الباى بان يطلب من فرنسا العون الحربى اذا اعتدت عليه اية دولة اخرى ، وذلك الحلف الدفاعى بطبيعة الحال يقتضى احتلال الفرنسيين لبعض النقط فى البلاد .

ولما قدم للباى ذلك المشروع فى صيف ١٨٧٩ رفضه يؤيده فى ذلك ماتشيو، وكان قنصل فرنسا يبغى فرض المشروع بالقوة على البـاى ولم يكن يروقه حذر وادنجتون ولاتردده . ولكن روستان حين لم يجد تأييدا من حكومته ،راى ان يملا الجو بالشائعات وان يصف الحالة فى تونس وصفا مثيرا وبين ان سياسة الاعتدال قد تودى بمركز فرنسا فى شمال افريقيـة ، وربما اثارت الخواطر على فرنسـا فى الجزائر ، وبالغ فى امر الحوادث التى تقع على الحـدود بين تونس والجزائر . ثم اشار الى ما تقوم به ايطاليـا للحد من النفوذ الفرنسى فى تونس .

ولكن هذه التقارير لم تحدث الاثر المطلوب فى باريز ، فلقد سقطت وزارة وادنجتون وجاءت وزارة دى فرنسـيه فى ٢٩ ديسمبر ١٨٧٩ . ولم تحزن ايطاليا على سقوط وزارة وادنجتون ، وكانت تنتظر من الوزارة التى تخلفها ان تكون اكثر عطفا على امانى الايطاليين ، ولكن فريسيه لم يكن اقل حماسة لمسألة تونس من سابقه ، فلقد عبر عن وجهة النظر الفرنسية بوضوح كبير . « فى كل مايختص بتونس نرى أن مصلحتنـا السياسية والاستراتيجيـة تقتضى الا يعرقل العلاقات بين تونس والجزائر اى نفوذ اجنبى . وانا نرى ان تونس ماهى الا امتداد لمستعمراتنا الافريقية ، وان حريتنا فى العمل فى الجزائر تجعلنا نهتم بكل ما يحدث فى تونس وان سياسة الباى يجب ان تكون مرتبطة بسياستنا » (٢ يونيو ١٨٨٠) (١) .

وكان فرنسيه موقنا بان ايطاليا لن تعترف بادعاء فرنسا حق التفوق فى تونس ، وانها تطالب فى نفس الوقت بمركز مساو لفرنسا ، ولكن كلا من فرنسا وايطاليا لم يكن يرغب فى حل متوسط . فاحتـدم النزاع بين الدولتين على الحصول على امتيازات السكك الحديدية او الخطوط التلغرافيـة ، وقامت حرب عنيفة بين الصحافة الفرنسية والصحافة الايطالية ، فوصفت الصحافة الايطالية اعتداءات فرنسا المتكررة على ايطاليا ، وان وجود فرنسا فى تونس فيه تهديد حقيقى لمركز ايطاليا البحرى ، وردت الصحف الفرنسية بالمثل .

---

(١) انظر الوثائق السياسية الفرنسية I. 3 . D. D. F, رقم ١٤٢

على أن فرنسا رأت أن تدخل الحكومة الايطالية لتأييد الشركات الايطالية وخاصة شركة روباتينو فيه اعتداء كبير على حقوق فرنسا وعلى الحالة الحالة السياسية في تونس . ولذا رأى فريسنيه أن من الحكمة عدم التنافس مع ايطاليا في مسألة تونس .

ولكنه صمم في نفس الوقت على أن تمنع فرنسا بالقوة أية محاولة من جانب ايطاليا للسيطرة على المشروعات الكبرى في تونس ، فمثل هذه المشروعات حق لفرنسا وحدها . ولم يخف فرنسية وجهة نظره هذه على سفير ايطاليا في باريس ، تشالديني . كما بين له أيضا أن النفوذ الفرنسي وحده هو الذي يجب أن يكون متفوقا في تونس ، ولم ينس أن يشير الى طرابلس كمكان يصح أن تذهب اليه ايطاليا .

على أن ذلك النذير لم يفت في عضد ايطاليا ، فسارت في طريقها تعرقل مشروعات فرنسا ، واعلنت أن في تونس مجالا متسعا لكل من ايطاليا وفرنسا، وكانت كل مظاهر النشاط الايطالي مثيرة لفرنسا ، فتعالت خطب رجالها بأن قرطاجنة كانت يوما ما جزءا من الامبراطورية الرومانية ولذا لايجب اليوم أن تخضع تونس لدولة أخرى ، وسارت المواكب من الايطاليين في الملابس البراقة يصحبها دق الطبول خلال شوارع تونس .

ولم يقتصر الايطاليون على مثل هذه المظاهر بل انشأوا صحيفة في كلياري تسمى المستقل . هذه الصحيفة اخذت تهاجم الفرنسيين بصفة عامة والخلق الفرنسي بصفة خاصة وتقارنه بالخلق العربي الفاضل ، بل وذهبت الى نعت خلق الفرنسيين بانه خلق منحل وفاسد وان فرنسا لاتهتم بالوسائل في سبيل الحصول على رغباتها الوثنية وهي استعباد المسلمين واستذلالهم » . وكانت هذه الصحيفة توزع مجانا في شمال افريقية في تونس والجزائر نفسها. واعتقد الفرنسيون اعتقادا جازما بأن كل الصعاب التي يجدونها في تونس هي من خلق الايطاليين .

ولذا وجدت فرنسا أن الفرصة في اخذ تونس تتضاءل كل يوم وأن الوقت قد حان للقيام بعمل جدي ، لاسيما وأن الموقف الدولي الاوربي كان يتغير بالتدريج في صالح ايطاليا ، لاسيما وأن موقف الوزارة الجديدة في انجلترا وزارة جلادستون لم يكن وديا بالنسبة لفرنسا ، فلقد كان جرانفل وزير الخارجية مستاءا من سياسة سولسبري الذي سبقه مصمما على اثارة العراقيل لفرنسا في تونس .

هذا الى ظهور أخطار جديدة في افق شمال افريقية مثل خطر الجامعة الاسلامية . (وليس هنا المجال للتفصيل فيه ، فلقد فصل فيه المؤلف في

جهات اخرى) فلقد وجدت فرنسا ان تونس أصبحت ملجأ للهاربين والمتذمرين الجزائريين كما كانت مركزا للدعاية للجامعة الاسلامية وموئلا للدسائس والمؤامرات ضد فرنسا ، ولقد وجه تيسو Jissot سفير فرنسا فى القسطنطينية نظر حكومته الى المناورات التى يقوم بها باهتمام السلطان عبد الحميد العثمانى وذلك رغم انذارات فرنسا المتكررة له. ولذا رأت الحكومة الفرنسية انه لابد من استعمال القوة فى تونس لاسيما وانه وصل الى علمها ان الاتراك يقومون باستعدادات حربية فى طرابلس لاثارة المشاكل على الحدود.

ولقد كان لموقف سان فالير سفير فرنسا فى برلين اثر مهم فى اثارة حكومته لتقوم بعمل حاسم ، فلقد رأى أن هناك شيئا من التردد فى صفوف الجمهوريين ورغبة فى الانتظار حتى نهاية الانتخابات ، فهو يكتب الى وزير الخارجية باتر لمى سانت هيلير يقول له : « تقول لى أنهم يريدون الانتظار حتى نهاية الانتخابات ، وعند ذلك يعملون ، ما هذا السخف ، وما هذا التعامى .. فى خلال عشرة اشهر ستصيرون امام موقف جديد ، أمام حماقة ايطالية على تونس ، امام تحالف سرى منظم ضدنا ، وما عليكم الا ان تتراجعوا لأن الظروف ستكون مختلفة عما نحن فيه الان . فبدلا من نزهة حربية ستكون امامكم حرب أوربية لصيانة مستعمرتنا فى الجزائر. ياورى العزيز انك وطنى غيور، وكذا مسيو جمبتا . حاول ان تراه وان تتفاهم معه حتى لاتقاسى بلادنا اذلالا جديدا ... انى قلق وغير سعيد .. وانى اود ان اجىء الى باريس لاقناع مسيو جمبتا ومسيو فرى ومسيو جريفى والمجلس كله بعمل ما يتطلبه الشرف القومى والمصلحة القومية ... ولولا انى لاأستطيع الاتصال باحد منهم دون استئذانك ! لكنت كتبت اليوم لمسيو جمبتا اصف له الموقف واستثير حماسته القومية ، يجب الا نخيب رجاء برنس بسمارك فينا، ويجب الا تتحقق فينا كلمة جورتشاكوف: ان فرنسا لم يعد يحسب لها حساب فهى لاقوة لها فى الخارج ... ان اوربا تنظر الينا لتحكم علينا ، ولتعرف اذا كنا نستطيع القيام بشىء ، لابد من القيام بخطوة قوية ، من بذل نشاط فى عمل ليس فيه خطر علينا ولا تراق فيه دماء كثيرة حتى نستطيع ان نحتل مكاننا اللائق بين الشعوب . واما اذا اثبتنا ضعفنا فسيكون لنا مركز اسبانيا فى اوروبا . أر خطابى لجمبتا ولجريفى . اعد على سمعهم كلام بسمارك وكلمة برنس جورتشاكوف ... يلزم أن يعرفوا أن علينا ان نختار بين مصلحة فرنسا الحيوية والمصالح الثانوية » .

وأبان سفير فرنسا فى روما ، دى نوال de Noailles عن مقدار الخطر بصفة خاصة وتقارنه بالخلق العربى الفاصل ، بل وذهبت الى نعت خلق

الايطالى (١) فقال « انه من المستحيل الوصول الى اتفاق مع ايطاليا بالنسبة لتونس الا اذا تنازلت فرنسا عن مركزها فى هذه البلاد فخيال كيرولى (رئيس الوزارة الايطالية) يتسع لكل شيء غير معقول وهو يتبع تحت تأثير من حوله سياسة عاقبتها الحرب مع فرنسا ، وانه لافائدة من تأجيل مسألة تونس ، بل ينبغى اتخاذ خطة حاسمة فى الوقت الذى لاتزال فيه أوربا صديقة لفرنسا .

لقد أعلن الايطاليون علينا حربا عوانا فى تونس ... وانهم يعملون على القضاء على نفوذنا والحلول محلنا .. سنفقد تونس ويصبح مركزنا حرجا فى الجزائر ، وان تسامحنا لن يجلب لنا صداقة ايطاليا ، بل ستقاتلنا كخصوم فى كل مكان .. » . وبين دى نوال كذلك أن الايطاليين يعملون على احكام صلاتهم بانجلترا لكى تتدخل فى تونس لصالحهم « فايطاليا لاتهتم فقط بابقاء النفوذ الفرنسى من تونس بل هى تريد ان تحل محل الفرنسيين فى كل أجزاء البحر الابيض وأن يكون لها المكان الثانى بعد انجلترا ... » (١)

وأمام هذه النذر كان لامفر لفرنسا من الالتجاء الى القوة المسلحة لتأديب تونس وايطاليا معا . ولذا منذ الوقت الذى تولى فيه فرى الحكم كانت الاستعدادات على قدم وساق على الحدود الجزائرية . وفى مايو من هذه السنة ١٨٨١ وصلت الى قرب العاصمة التونسية حملة فرنسية برية كانت قد قامت من حدود الجزائر واخرى بحرية كانت قد نزلت فى بنزرت ، وتقدمت الجنود الفرنسية وعسكرت امام قصر باردو حيث كان ينزل الباى . وتقدم الجنرال بريار Bréart بمشروع معاهدة ، وأعطى الصادق مدة اربع ساعات للتفكير اقتنع بعدها حاكم تونس وكان قد استنجد بالدول فلم يجد ناصرا ، اقتنع بقبول الحماية الفرنسية فأمضى معاهدة باردو فى ١٨ مايو ١٨٨١ . وبذا أصبحت تونس خاضعة لفرنسا فى ظل نظام الحماية .

* * *

(١) الوثائق السياسية الفرنسية D. D. F . J. 3 رقم ٣٤٩ الى سانت هيلير St. Hilaire يناير ١٨٨١ . جمبتا وفرى وجريفى أساطين الحزب الجمهورى فى فرنسا

(١) نفس المصدر السابق تقارير دى نوال De noailles ارقام ٣٦٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ فى فبراير ومارس ١٨٨١ ٦

لقد كان لسقوط تونس فى يد الفرنسيين وقع شديد فى مراكش ، فلقد ضربت فرنسا مثلا لما تستطيعه القوة ، وبعد اخذ تونس تستطيع فرنسا التفرغ لشئون مراكش التى كانت حكومتها آخذة فى الضعف تدريجيا ، لاسيما وان الفرنسيين يستطيعون تبرير القيام بأية اعمال حربية على الحدود المراكشية ، فمنذ عهد بعيد قامت المناوشات بين القبائل الجزائرية والقبائل المراكشية ، كما ان عددا كبيرا من الثوار الجزائريين كانوا يجدون دائما لهم ملجأ فى مراكش ؛ ولقد تدخلت مراكش بالفعل فى النزاع الذى قام بين فرنسا والامير عبد القادر الجزائرى وساعدته بالامداد والرجال .

والواقع ان الموقف فى مراكش كان جد خطير . فلقد كان سلطان مراكش لايستطيع منع الهجرة الى بلاده ، ولا منع القبائل من التنقل بحرية فى منطقة الحدود الجزائرية المراكشية . ولم تكن هناك حدود طبيعية واضحة بالفعل بين مراكش والجزائر تقف فى سبيل الغزو والتنقل بين القطرين .

ولم يكن مسلك الفرنسيين فى الجزائر أو تونس باعثا على الاطمئنان فى مراكش فلقد اصبحت مراكش تعتقد ان فرنسا ستعمل على بسط نفوذها على مراكش وهى بالفعل تشجع عددا كبيرا من المراكشيين على اكتساب الحماية الفرنسية وتسير حثيثا فى تحصين النقط الفرنسية .

لقد كانت مراكش فى موقف دقيق للغاية فبجانب المطامع الفرنسية التى تنذر مستقبل البلاد بخطر كبير ، كانت اسبانيا محتلة بعض النقط الساحلية فى الشمال حول مليلة . واهتمام اسبانيا بشئون مراكش قديم منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . واسبانيا ترى منذ عهد ايزابيلا بأنه لا اطمئنان حقيقيا لها الا بعد الاستيلاء على الشواطىء المراكشية المجاورة لها . ولقد اعترفت مراكش نفسها بمركز الاسبان فى مليلة فى جملة معاهدات فى اواخر القرن الثامن عشر وفى اوائل النصف الثانى للقرن التاسع عشر . ولكن وجود الاسبان فى هذه المنطقة كان دائما مصدر نزاع كبير بين اسبانيا ومراكش . وهذا النزاع دعا فى بعض الاحيان الى قيام الحرب كما حدث فى اوائل النصف الثانى للقرن التاسع عشر . وكانت اسبانيا دائما حريصة على الا تقع مراكش فى يد اية دولة اخرى ، واذا كان لنفوذ أية دولة أن يتفوق فى هذه الاقطار فيجب أن يكون ذلك النفوذ اسبانيا .

ولم تكن انجلترا تجهل قيمة مركز مراكش فمراكش مركز استراتيجى ممتاز فى المحيط الاطلنطى وفى البحر الابيض المتوسط . بل كانت تهتم بمسألة مراكش اهتماما كبيرا للمصالح الانجليزية فى البحر المتوسط ولسيطرة الانجليز على مدخل ذلك البحر من ناحية الشرق ومن ناحية الوسط (فى مالطه) . ولا أهمية كبيرة

لمركز الانجليز المتفوق فى مالطة او قناة السويس اذا سيطرت دولة معادية لانجلترا على السواحل المراكشية . وما كان الانجليز يخشونه خلال النصف الثانى للقرن التاسع عشر هو سيطرة فرنسا على مراكش وانشاء قاعدةبحرية قوية فى سبته ، وكانت تراقب تقدم النفوذ الفرنسى فى هذه الاقطار بشيء كبير منالقلق . وتمنت لو قامت حرب المانية فرنسية تضع حدا لما راته منالعدوان الفرنسى فى هذه الجهات .

لم تكن انجلترا تفكر فى احتلال مراكش ولكنها ماكانت تبغى أن تقعمراكش فريسة لأى غزو اجنبى قد يقضى على استقلالها . وبجانب مصالح الانجليز الاستراتيجية بمراكش كانت مصالحهم الاقتصادية والتجارية . فلقد حرصت انجلترا على الحصول على امتيازات تجارية فى مراكش وأرسلت لذلك فى التسعينات للقرن التاسع عشر (١٨٩٢) بعثة سير تشارلز سمبث لم ينجح مسعاها فأردفتها بارسال بعثة أخرى .

واما المانيا فلم تلق بالا لشئون مراكش فى السنوات العشر التى تلت الوحدة الالمانية ، وظهر ذلك واضحا فى مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ . ولكن اهتمام المانيا بالاستعمار منذ سنة ١٨٨٤ وخاصة بعد سنة ١٨٨٧ جعلها تلقى نظرة طمع فى اتجاهمراكش، بل واخذتتفكر جديا فىاحتلال محطة فىمراكش فىسنة١٨٨٨، تقدمت المانيا بذلك الطلب بالفعل الى السلطان ، ولكن ذلك الطلب باء بالرفض ، ولم تحزن الدول الاوربية الكبرى الاخرى .

واما ايطاليا فلم يكن يسرها ابدا تقدم النفوذ الفرنسى فى مراكش بعد أن فرضت حمايتها على تونس ، فكان بودها لو تراكمت العراقيل والعقبات أمام النفوذ الفرنسى فى هذه الجهات . وربما طمعت ايطاليا فى يوم من الايام ان تضع قدميها فى مراكش ، ولكنها كانت تعود فترى أن ذلك حلما لا يمكن تحقيقه ، فما كانت الدول الكبرى وخاصة فرنسا تسمح لها بذلك .

سقطت تونس فى يد الفرنسيين فى ١٢ مايو ١٨٨١ ،وفىصيفهذه السنة تقدم سلطان مراكش الى سير درمندهاى القنصل الجنرال الانجليزى بأنيحمل الى حكومته فى لندن استنجاد السلطان بها علها تتخذ الخطوات اللازمة لمنع الفرنسيين من فرض حمايتهم على بلاده ، ووجدت الحكومة البريطانية من صالحها فى ذلك الوقت القيام بهذه الخطوات ، ولذا فقد حذرت الحكومة الفرنسية من غزو الحدود المراكشية ، ونصحت السلطان فى الوقت نفسه بان يقنع القبائل المراكشية بضرورة عدم التدخل فى مشكلة الجزائر .

وامام موقف انجلترا الجدى وجدت الحكومة الفرنسية نفسها مضطرة الى ان تكرر لوزارة جلادستون انها ستحترم سيادة السلطان فى مراكش ،

واضافت الى ذلك بانها ستقف كذلك امام مطامع الاسبان فى هذه الجهات ، وكان الاسبان يؤملون ان تكون مراكش من نصيبهم ، لاسيما بعد وقوع تونس تحت الحماية الفرنسية .

وكان قيام التنازع بين فرنسا واسبانيا من ناحية ، وزيادة نفوذ انجلترا والمانيا من ناحية اخرى ، عاملا على تأخير بسط نفوذ فرنسا ومع ذلك فلقد عملت فرنسا منذ استيلائها على الجزائر على الا يتفوق نفوذ دولة اخرى فى مراكش ولذا فهى تراقب سير الامور فى هذه البلاد عن كثب وبعناية فائقة . فتغير مركز مراكش السياسى يؤثر بلا شك تأثيرا كبيرا فى مركز الفرنسيين فى الجزائر . ففرنسا حريصة جد الحرص على الا تسود الفوضى فى مراكش حتى لا يتسرب شررها الى الجزائر . وهى حريصة على الا يسود النفوذ الانجليزى فى هذه البلاد ، فسيادة الانجليز فى هذه الاقطار معناها قلب التوازن الدولى فى البحر الابيض ، وخاصة وان الانجليز يسيطرون على جبل طارق ، فلو استطاع الانجليز أن يسيطروا على الجانب الافريقى المقابل لجبل طارق اذن لاصبح مركز فرنسا فى البحر المتوسط مستحيلا ، ولا استطاعت انجلترا أن تغلق ذلك البحر ، وتقطع المواصلات البحرية بين سواحل فرنسا المطلة على البحر المتوسط وسواحلها الغربية .

على ان انجلترا ما كانت مستعدة ابدا طوال القرن التاسع عشر لان تترك فرنسا تحتل مراكش او اجزاء منها او يكون لها النفوذ المتفوق فيها ، وخاصة بعد ان سيطرت فرنسا على الجزائر واحتلت تونس وناوءت الانجليز العداء فى مصر . وكان موقف المانيا من العوامل التى دعت الى عدم توسع فرنسا فى هذه البلاد ، فلقد عنيت المانيا بشئون مراكش وعضدت مطالب الاسبان ومطامعهم فى السواحل الشمالية المواجهة لاوربا ، وما كانت تسمح مطلقا بان تكون فرنسا صاحبة النفوذ الاوحد فى هذه الجهات . على أن موقف كل من انجلترا والمانيا واسبانيا لم يمنع فرنسا من مواصلة جهودها لاحراز التفوق السياسى والاقتصادى فى مراكش ، واحرزت جهودها هذه بعض النجاح وخاصة بعد ان سيطر الانجليز على مصر ، فلم يكن مركزهم قويا لمطالبة الفرنسيين بالاعتدال فى التوسع السياسى والاقتصادى فى مراكش . اتبع الفرنسيون فى مراكش نفس الخطة التى اتبعوها فى تونس قبل الحماية ، واصبح من المعترف به دوليا أن للفرنسيين مركز خاص فى مراكش نظرا لقرب هذه البلاد من الجزائر . ولم تنجح محاولات الالمان كثيرا فى التقليل من شأن فرنسا فى هذه البلاد .

على ان محاولات فرنسا للتفوق فى مراكش لم تلق تأييدا من الانجليز بل بالعكس اذا اشتد فى وقت طويل التنازع بين الدولتين . ولولا هذا التنازع

وهذه المنافسة لاستطاع الفرنسيون اكتساح مراكش كما اكتسحوا تونس من قبل . فمسألة مراكش اذن لها صلة كبيرة بالعلاقات الانجليزية الفرنسية فى العشرين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر وتكيفت مرارا بالظروف التى مرت فيها هذه العلاقات . فطالما كانت فرنسا مناوءه للانجليز فى مصر لم تكن تنتظر الا أن تجد من الانجليز كل مناوءة وكل عرقلة فى مراكش . وطالما خفت وطأة الفرنسيين فى مهاجمة انجلترا فى وادى النيل هدأت المنافسة الانجليزية فى مراكش .

غلى أن فرنسا لم تهدأ ثائرتها ضد الانجليز فظلت تهاجمهم بكل عنف وتعرقل مشاريعهم وخاصة الادارة المالية فى مصر ، وبلغ النزاع بين الدولتين اشده فى مسألة فاشودة التى انتهت بهزيمة سياسية ساحقة لفرنسا ، اضطرت فيها على التقهقر على طول الخط وسلمت بمطالب المصريين والانجليز فى السودان .

فى ازمة فاشودة فهمت فرنسا قوتها الحقيقية وتيقنت من قوة انجلترا وعزمها على تنفيذ مطالبها فى شمال شرقى افريقية ولو ادى ذلك الى الحرب . ولقد اثبتت ازمة فاشودة ان فرنسا لن تستطيع الاعتماد على تحالفها مع روسيا كما انها لاتستطيع مناوءة انجلترا ؛ وجدت فرنسا أن من الاصلح الاتفاق مع انجلترا وخاصة وانه لم يكن من السهل عقد اتفاق بين فرنسا والمانيا فمسألة الالزاس واللورين لازالت جرحا داميا فى قلب كل فرنسى .

ووجدت انجلترا من جانبها أن المنافسة الالمانية القوية بينت لانجلترا الخطر الكبير الذى سينجم عن سياسة التباعد مع فرنسا . فهى بلاريب تعمل على تامين مركزها فى مصر والبحر الابيض وهذا لايكون الا بالاتفاق مع فرنسا. جعلت انجلترا وسيلتها للتقارب من فرنسا مسألة مراكش . فكان الانجليز مستعدين لان يتنازلوا عما لايملكون فى مراكش لتعترف لهم فرنسا بحقوق يملكونها فعلا فى مصر .

ولقد بدأت المفاوضات بين انجلترا وفرنسا لتسوية المسائل المتنازع عليها بينهما وذلك فى صيف سنة ١٩٠٣ . وظهرت فى هذه المفاوضات رغبة الفرنسيين فى فرض سيادتهم على مراكش . وكان لورد كرومر ، وهو عليم بما يلاقيه الانجليز من عنت ومتاعب فى مصر نتيجة لمعارضة فرنسا ؛ يرى أن مركز انجلترا فى مصر متوقف الى حد كبير على رضا فرنسا ؛ ولن ترضى فرنسا حتى تجاب مطالبها فى مراكش (١) .

---

(١) 2ème Série D. D. F. جزء ٤ رقم ٣٦ . دلكاسه الى بول كامبون ٢٤ اكتوبر ١٩٠٣ Zetland: Cromer ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ 2 ème.

وتم الاتفاق اخيرا بين الدولتين ، ووقع الاتفاقية عن فرنسا بول كامبون سفير فرنسا فى لندن ، ولانزدون وزير الخارجية الانجليزية عن انجلترا . وفى هذه الاتفاقية اعلنت الحكومة الانجليزية انهـا لن تعمل على تغيير مركز مصر السياسى ، واعلنت حكومة الجمهورية الفرنسية من جانبها بأنهـا لن تعرقل عمل الانجليز فى مصر ... ونظير هذا تعلن حكومة الجمهورية الفرنسية بأنها لن تعمل على تغيير مركز مراكش السياسى ؛ وتعترف حكومة جلالة الملك البريطانيـة بأن من حق فرنسـا كدولة متاخمة لمراكش السهر على سـلامة مراكش وامنهـا ومسـاعدتها فى كل الاصـلاحات الادارية والاقتصـادية والمالية والحربية التى هى فى حاجة اليها . واعلنت حكومة جلالة ملك انجلترا انها لن تعرقل اعمال فرنسا فى هذه البلاد ... واعلنت الدولتان معا احترامهما لحرية التجارية فى كل من القطرين ؛ كمـا اتفقت الدولتان على عـدم تسليح الساحل المراكشى المواجه لجبل طارق وعلى احترام حقوق اسبانيا فى الجزء من مراكش الواقع معظمه على البحر الابيض المتوسط (١) .

وبهذه الاتفاقية اطمأنت فرنسا على مركزها فى مراكش . فلقـد زالت معارضة انجلترا لتفوق النفوذ الفرنسى فى مراكش ، وضمنت فرنسـا كذلك تأييد انجلترا لفرنسا اذا حاولت دولة بحرية قوية تهديد مركز الفرنسيين فى هذه البلاد . ولقد ظهر هذا التأييد بالفعل واضحا حين حاولت المـانيا اثارة صعوبات أمام الفرنسيين فى مراكش وحين حاولت بالفعل تقوية النفوذ الالمانى فى بلاط السلطان . وقفت انجلترا الى جانب فرنسا ، واضطرت المـانيا الى التراجع والى ترك الفرنسيين احرارا فى هـذه البلاد يتصرفون فيهـا كيفما شاؤا . وانتهى الامر بفرض الحماية الفرنسية على مراكش فى ٣٠ مارس ١٩١٢ وبذا أصبحت مراكش منقسمة الى منطقتين الشمالى منها منطقة نفوذ اسبانى والجنوبى منها منطقة نفوذ فرنسى .

***

وكما كان لاستيلاء الفرنسيين على تونس رد فعل على مراكش كان له رد فعل شديد على طرابلس لمجاورتها الفعلية لتونس . ولكن طرابلس كانت تابعة تبعية فعلية للباب العالى الذى عمل على امداد قواته فيها وصمم على الدفاع عنها اذا حاول الفرنسيون الاعتداء عليها . ورات انجلترا من جانبها أن تحذر

---

(١) انظر نصوص هذه الاتفاقية والشروط السرية فى Serie D. D. F. جزء ٤ رقم ٥٩ تحت عنوان Accords Conclus le 8 Avril 1904 entre la France. et l'Angleterre.

فرنسا من محاولة اى توسع فى هذه الناحية . فمن المفهوم كما بينت حكومة جلادستون ان انجلترا لن توافق مطلقا على التوسع الفرنسى فى طرابلس .

على أن فرنسا لم تكن تنوى بالفعل التوسع على حساب طرابلس ، وان كانت ترى أن من الواجب على الدولة العثمانية الا تجعل من هذه البلاد ماوى للثائرين الذين فروا من تونس . وكانت ترى الى جانب ذلك منذ صيف سنة ١٨٧٨ أن من الحكمة عدم معارضة الايطاليين اذا ذهبوا الى طرابلس متى اعترفوا لفرنسا بالتفوق فى تونس .

ولقد بدا الايطاليون يفكرون جديا فى أمر طرابلس حين فرض الفرنسيون حمايتهم على تونس فى صيف سنة ١٨٨١ ، ولم تكن فرنسا مستعدة لتعارضهم او لتضع العراقيل فى سبيلهم ، ولكن موقف الايطاليين العدائى الجديد بالنسبة لمركز فرنسا فى تونس لم يجعل فرنسا تعمل على تسهيل الامور لهم فى طرابلس . ولكن حين اخذت ايطاليا تعترف منذ سنة ١٨٩٦ بمركز فرنسا الممتاز فى تونس ومراكش عقدت الحكومة الفرنسية النية على ان تترك للايطاليين الحرية فى التصرف فى أمر مصير طرابلس . وفعلا أكدت الحكومة الفرنسية فى سنتى ١٩٠٠ ، ١٩٠١ للحكومة الايطالية بان فرنسا لاتفكر فى الاستيلاء على طرابلس وترى أنها تدخل ضمن منطقة النفوذ الايطالى (١) . وسيكون موقف فرنسا الودى هذا من العوامل التى شجعت الايطاليين على احتلال طرابلس فى أوائل القرن العشرين .

محمد مصطفى صفوت

---

(١) انظر الوثائق الفرنسية السياسية J. I ، 2 ème Serie. وثائق ٤٧٣، ٥٠١، ٥٠٥، ٥٠٨، ٥١٠، ٥٣٠، ٥٤٩، ٥٦٥ .